(٢)
السيدة زينب وما مر بها من أحداث

كانت السيدة زينب رضى الله عنها فى الخامسة من عمرها عندما انتقل جدها عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الكريم. . ولم تمض سوى شهور قليلة حتى لحقت به أمها فاطمة الزهراء. . ولاشك أنها بإحساس الطفولة شاهدت حزن والدتها عندما انتقل الرسول إلى جوار ربه. . فقد خلت الحياة من أعظم رسل الله. . هذا النبى العظيم الذى غير معالم الحياة فى شبه الجزيرة العربية كلها، والعالم كله بعد ذلك على يد خلفائه.

جاء إلى الحياة والعالم يعمه الظلم والظلام والجهالة، وتركه بعد أن ترك لهم كتاب الله الذى يعصمهم من الذلل إن تمسكوا به، وسنته التى تضعهم فى الطريق الصحيح عندما يتمسكوا بها.

ترك لهم رستورًا سماويًا يجمعهم على الحق، وخير الدنيا والآخرة. . وغادرهم بعد أن صاروا أمة لها دستورها وقوانينها وحاكمها. . وبكل هذا انطلق خلفاؤه يفتحون إمبراطورية كسرى، وينتزعون ممالكاً وشعوبًا من الرومان. . ليستظلوا بظلال الدين الحنيف.

وأخذت زينب رضى الله عنها ترعى إخوتها، وترعى أيضًا والدها الإمام على - كرم الله وجهه - رغم سنها تلك الصغيرة.

ولاشك أنها سمعت من والدها عن أحداث السقيفة التى آل الحكم بعدها إلى أبى بكر الصديق، بينما كان والدها مشغولاً بجهاز جدها عليه الصلاة والسلام.

ولا شك أيضًا أنها سمعت كيف استطاع الصديق أن يهزم المرتدين ومانعى الزكاة ومدعى النبوة، ويعيد للمسلمين وحدتهم.. وكيف أنه أطلق إشارة البدء للفتوحات الإسلامية الكبرى عندما أمر جيش أسامة الذى كان قد أعده الرسول ﷺ لمجابهة الروم لأداء مهمته التى كلفه بها رسول الله.. وكان ذلك بداية الانتصارات الإسلامية الكبرى على الروم والفرس.

وانتهت خلافة الصديق بعد عامين وعدة شهور.. وكانت هى ما زالت فى سن الطفولة.. ترعى أخوتها.. وتشرب من والدها ما تسمعه عنه عن جدها العظيم.. وعن الإسلام ومبادئه وفضائله.

وكان والدها مشهورًا بالبلاغة والفصاحة وفهمه لكتاب الله الكريم.. فهو الذى ودع الرسول الكريم بقوله:

«إن الصبر لجميل إلا عنك.. وأن الجذع لقبيح إلا عليك.. وأن المصاب بك لجليل.. وأنه قبلك وبعدك لجلل».

وراقبت زينب رضى الله عنها الأحداث.. فهى شديدة

الذكاء.. شديدة الاهتمام بما يجرى من أحداث بحكم أنها حفيدة الرسول عليه الصلاة والسلام وبنت الإمام على وأخت الحسن والحسين.. وبدأت تعى ما يجرى على الساحة من وهج الانتصارات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب، ورغم صغر سنها إلا أنها بحكم النشأة والبيئة كانت تسبق عمرها فهما ووعيا بالتغيرات الهائلة التى أحدثها الإسلام على الساحة.

ورأت كيف كان والدها يعلمهم الحرص على الفرائض، وقيام الليل، والزهد والتقوى، فشبت متحلية بكل هذه الفضائل.. من حب لله.. وحب لعباد الله.. وحب للخير، وحرص على احترام الآخرين.. فكانت مثالاً للمرأة المسلمة المتخلقة بأخلاق الإسلام.

ومرت الأيام..

وتقدم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين للزواج من أختها أم كلثوم (زينب الوسطى) ووافق والدها على هذا الزواج.. وأنجب منها ابن الخطاب زيد الأكبر ورقية.

وتقدم عبد الله بن جعفر بن أبى طالب للزواج من زينب رضى الله عنها.. ووافق والدها على زواجه منها لقرابته وحسن أخلاقياته وما كان يتصف به من فضائل.. فهو ابن جعفر بن أبى

طالب ابن عم الإمام وهو الذى هاجر بدينه إلى الحبشة، ودافع عن الإسلام دفاعًا مجيداً أمام ملك الحبشة، عندما أوفدت مكة عمرو ابن العاص قبل إسلامه ليوغر قلب النجاشى على المسلمين.!

وفى الحبشة ولد عبد الله.. فكان أول مولود بالإسلام فى الحبشة.. وقد غادرها إلى المدينة فى السنة السابقة للهجرة، وكان الرسول قد تم له فتح خيبر، وعندما شاهد ابن عمه تلقاه فرحًا قائلاً له:

«ما أدرى بأيهما أسر.. بفتح خيبر.. أم بقدوم جعفر».

وذهب جعفر لمؤتة لمجابهة الروم فى الجيش الذى أرسله الرسول عليه الصلاة والسلام بقيادة زيد بن حارثة لمجابهة الروم.. فى أول مواجهة بين الإسلام والروم.. وقال الرسول الكريم لهذا الجيش الذى كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل:

«أمير القوم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم».

وتوجه الجيش إلى مؤته فى الشام.. وإذا بالروم يحشدون أضعاف أضعاف جيوش المسلمين.. من جنود الروم ومن تحت سيطرتهم من عرب الشام.

وتشاور المسلمون فى الأمر.. هل يمكنهم مواجهة هذا الجيش الضخم المزود بالعتاد والرجال، والمدرب تدريبًا عسكريًا على أعلى المستويات؟!

ووقف ابن رواحة يخطب المسلمين بكل ما أوتى من حب للجهاد وحرص على الاستشهاد وقال:

«ياقوم إن التى تكرهونها (يقصد الشهادة) لهى التى خرجتم تطلبونها. والله ما نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بقوة سلاح.. ما قتلناهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به.

انطلقوا، فو الله لقد أتينا يوم (بدر) ما معنا إلا فَرَسَان.. ويوم (أحد) ما معنا إلا فرس واحد!

انطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ورسوله، وليس لوعد الله خُلْف.

وإما الشهادة فنلحق بالإخوان، ونرافقهم فى الجنان».

وشعر المسلمون بالدافع القوى للاستشهاد وخوض هذه المعركة مهما كانت الصعاب.

ودارت الحرب.. وقتل (زيد بن حارثة).. وحمل الراية جعفر بن أبى طالب.. وقاتل جعفر قتال الحريص على الاستشهاد.. حتى ضرب على يمينه، فحمل الراية بشماله،

فضربه الروم حتى قطعوا يده اليسرى، فاحتضن اللواء بعضدية، فضربوه حتى خر صريعًا وتوجه إلى القيادة «عبد الله بن رواحة» الذى قاتل بشجاعة منقطعة النظير حتى قتل.

وتشاور المسلمون من تكون له القيادة، واستقر الرأى أن يتولاها خالد بن الوليد الذى استطاع التغلب على الموقف، وظهرت عبقرية خالد العسكرية، فقد نظم الجيش تنظيمًا جديدًا حتى أوهم الأعداء أن هناك جيشًا إسلاميًا جديدًا انضم إلى جيوش المسلمين، ثم انسحب عندما أسدل الليل سدوله ليعود بجيشه إلى المدينة، بعد أن أيقن أن المعركة غير متكافئة!

* * *

وفى اليوم التالى للمعركة وبينما خالد بن الوليد ينسحب عائدًا بجيشه إلى المدينة.. كان الناس فى المدينة قد لفت نظرهم الحزن البادى على وجه الرسول عليه الصلاة والسلام.. وتحدث إليهم بعد أن صلى بهم صلاة الصبح وحدثهم عما جرى.. وكأنه يصف ما مر بجيش المسلمين من أحداث.

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

أخذ الراية زيد بن حارثة.. فقاتل بها حتى قتل شهيدًا..

وواصل عليه الصلاة والسلام حديثه:

ثم أخذها جعفر.. فقاتل حتى قتل شهيدًا..

وصمت قليلاً عليه الصلاة والسلام وقال:

ثم أخذها «ابن رواحة» فقاتل بها حتى قتل شهيدًا..!

وساد الصمت.. والناس تشرئب بأعناقها إلى حديث النبى الخاتم تريد أن تعرف ما حدث.. واستمعوا إلى خاتم النبيين وهو يقول لهم:

«لقد رفعوا إلىّ فى الجنة فيما يرى النائم، على سرر من ذهب، ورأيت جعفراً يطير مع الملائكة فيها، وجناحاه مضرجان بالدم».

وقال لهم الرسول أيضًا:

ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ورفع يديه داعيًا فقال:

«اللهم فإنه سيف من سيوفك فأنت تنصره».

وخرج الرسول الكريم يواسى أسماء بنت عميس زوجة جعفر فى مصابها.

وبعد ثلاثة أيام.. ذهب الرسول مرة أخرى إلى بيت ابن عمه جعفر ليطمئن على أولاده.

ويصف ابنه «عبدالله» الذى تزوج زينب فيما بعد عن هذه

الأيام التى علقت بذاكرته ولم تستطع الأيام أن تسدل عليها ستار النسيان.

لقد طلب الرسول أن يأتوا إليه بأولاد جعفر قائلاً:

- ائتونى ببنى أخى.

قال عبد الله بن جعفر متذكراً هذه الأيام:

فجىء بنا وكاننا أفراخ، فدعا الحلاق فحلق رءوسنا ثم قال:

«هنيئًا لك.. أبوك يطير مع الملائكة فى الجنة..».

وأخذنا إلى بيته، فأقمنا عنده ثلاثة أيام ضيوفًا عليه.. نطعم ونشرب، وهو يعظنا ويزكينا حتى خفف عنا حزننا.

* * *

لقد أقبل الجيش الذى قاده خالد بن الوليد، وخرج النبى لاستقباله.. وقال لأصحابه:

- خذوا الصبيان فاحملوهم.. واعطونى ابن جعفر وحمل بين يديه عبد الله.

وعندما ظن المسلمون أن الجيش جاء فارًا عن القتال عابوا عليه الانسحاب واستقبلوه بقولهم:

- يا فرار.. فررتم من أجل الله الذى كتب لكم..

فقال لهم عليه الصلاة والسلام:

ـ ليسوا بالفرار.. ولكنهم الكُرّار إن شاء الله.

لقد عاد جيش مؤتة إلى المدينة فى جمادى الآخرة من السنة الثانية من الهجرة.. وكان عمر زينب رضى الله عنها ثلاث سنوات.

وكان عبد الله بن جعفر طفلاً حمله الرسول بين يديه.

وها هى الأيام تمر..

وها هو عبد الله يتقدم للزواج من زينب.. وها هو والدها على بن أبى طالب يرحب بهذا الزواج لأنه ابن عم والد عبد الله جعفر بن أبى طالب.. ولبلاء جعفر وحب الرسول لجهاده العظيم فى سبيل الله..

كان الزواج متكافئًا..

كان عبد الله مثالاً للسخاء والكرم والتقوى..

وكانت زينب مثالاً للطهر والبلاغة والطاعة.

وقد أنجبت منه جعفر وعلى وعـون وبنتين أم كلـثوم وأم عبد الله.

* * *

والذين تحدثوا عن حياة السيدة زينب رضى الله عنها.. تحدثوا عن ورعها وزهدها وطول قيامها، وتقواها.. ولم يتعرض هؤلاء لصورتها، إلا بعد أن ظهرت على مسرح الحياة السياسية أثناء مأساة كربلاء.. فمن رأها تحدث عن هذه الصفات التى تتصف بها من الجرأة والشجاعة فى مواجهة الطغاة، كما تحدثوا عنها وعن جمالها الأنثوى، فقد وصفها عبدالله بن أيوب الأنصارى بقوله:

ـ فو الله ما رأيت مثلها وجها كأنه شقة القمر.

وقال عنها الجاحظ:

أنها تشبه أمها لطفًا ورقة، وتشبه أباها علمًا وتقى.

ويروى الرواة كيف كانت على ثقافة دينية رفيعة، ويسوقون أمثلة لذلك.

ومن هذه الأمثلة شرحها للحديث النبوى الشريف:

«الحلال بيّن و الحرام بيّن»

فقد أخرج ابن حميد فى مسنده واليافعى فى شأنه قالا:

جلس الحسن والحسين ابنا الإمام على رضى الله عنهم يتذكران يومًا ما سمعاه من جدهما ﷺ:

«الحلال بيّن والحرام بيّن.. وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام.. كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

ألا وان لكل ملك حمى.. ألا وان حمى الله محارمه.. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله.. وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب».

فقالت:

اسمعا ياحسن وياحسين إن جدكما رسول الله ﷺ مؤدب بأدب الإله. فإن الله أدبه فأحسن تأديبه، فقد قال ﷺ:

«أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

كما هيئ ذلك من رب العالمين لحمل رسالة الدين، والدعوة إلى عبادة الله العظيم، الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومن كجدى النبى العربى، الهاشمى القرشى الذى اصطفاه الله تعالى، واختاره ليبين للناس طريق الحياة من خير وشر.

ثم قالت:

الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات.

فهناك ثلاث درجات فى الدين:

حلال وحرام ومشتبه

أما الحلال فهو ما أحله الله تعالى بأن جاء القرآن الكريم بحله، وبينه الرسول فى سنته.. كحل الشراء والبيع وكإقامة الصلاة فى أوقاتها والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وترك الكذب والنفاق والخيانة.

وأما الحرام فهو ما حرمه القرآن وهو على النقيض من الحلال.

وأما المشتبه فهو الشىء الذى ليس بالحلال ولا بالحرام.

والمؤمن الذى يريد لنفسه السعادة فى الدنيا، والنعيم فى الآخرة ما عليه إلا أن يؤدى ما أوجب الله تعالى، ويسير فى طريق القرآن الحكيم، ويقتدى بجدى النبى ويتأسى به ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وأصبح دينه صحيحاً وعرضه نقيًا.

وأما من سار فى طريق الشبهات فلا يأمن من أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله. وأن لكل ملك حمى بجوار ملكه، وحمى ملك الملوك محارمه.

ولقد قال النبى ﷺ:

«اتق المحارم تكن أعبد الناس».

وأن الله تعالى أودع الإنسان مضغة وجوهرة، إذا صلحت فإن الجسد يكون صالحًا نقيًا، وهى القلب، فإذا كان سليمًا فإن صاحبه يكون يقظًا لأمور دينه ومبادئ شريعته. يرى السعادة كلها فى الاستقامة على هدى القرآن والسنة، ومن سلك هذا السبيل يكون يوم القيامة من الفائزين.

إن حياتنا فى الدنيا مرحلة من المراحل التى توصل الإنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار، وليس بعد الموت عقاب، ولا بعد الدنيا إلا الجنة أو النار.

ويبدو من كلام السيدة زينب هذا عمق فهمها لجوهر الإسلام.. وعمق نظرتها للحلال والحرام، وما بينهما من أمور يجب تجنبها حتى لا يقع الإنسان فى الحرام.

حتى أن عليا زين العابدين.. كان يقول لها:

«ياعمتاه أنت بحمد الله عالمة غير معلمة، وفاهمة غير مفهمة».

وهو يعنى أنه لتقواها يفيض الله عليها بالعلم لقوله تعالى:

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٨٢]

وكان لتربيتها ـ رضى الله عنها ـ أثر كبير فى تكوين شخصيتها.. تلك الشخصية التى طبعت على تقوى الله، وعلى

حب الخير للناس.. كل الناس.. وحبها للقيام للعبادة فى الليل والناس نيام.

وكيف لا تكون كذلك.. وقد رأت حرص والدها على كثرة العبادة لله.

وكيف لا تكون كذلك وقد رأت أمها فاطمة الزهراء أحرص الناس على التأسى بوالدها العظيم، والقيام بالعبادة كما كانت تراه يقوم بها.. أو على الأقل الاقتداء به.. لأن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن فى استطاعة أحد أن يكون صورة منه فى العبادة والتقوى، لأنه أعرف الناس بخالقه.

أليس هو القائل عليه الصلاة والسلام:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون.

أطت السماء وحق لها أن تئط.. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك ساجد لله.

والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الطرقات تجأرون».

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

« أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له».

وقال جابر بن عبد الله فيما رواه البخارى:

«جاءت ملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم.

وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً.

فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة.

فقالوا: أدِّلوها له يفقهها.

قالوا: فالدار الجنة والداعى محمد.

فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله عزّ وجلّ، ومحمد فرق بين الناس».

ومن فى الناس مثل جدها العظيم، الذى كان يسمع القرآن من ابن مسعود ذات يوم، فلما بلغ قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فإذا بالرسول يبكى ويقول لابن مسعود:

«امسك».

إنه الإحساس بجلال الله جل جلاله.

والرسول العظيم هو القائل:

«أتانى جبريل عليه السلام فقال:

- يا محمد.. عش ما شئت فإنك ميت.. وأحبب من شئت فإنك مفارقه.. واعمل ما شئت فإنك مجزى به. واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وأن عز المؤمن استغناؤه عن الناس».

كانت عقيلة بنى هاشم تعى كل ذلك.. وكانت تعمل بكل ما جاء به جدها العظيم من فضائل وقيم وعبادات الإسلام، حتى تكون قريبة من ربها.. فقد كانت شديدة الحب لله.. شديدة الحرص على العمل بكل ما يقرب منه.

وكثيرًا ما كانت تناجى ربها بقولها:

«يا من لبس العز وتردى به، سبحان من تعطف بالمجد وتكرم، سبحان من لا ينبغى التسبيح إلا له جل جلاله. سبحان من أحصى كل شىء عددًا بعلمه وخلقه وقدرته، سبحان ذى العزة والنعم، سبحان ذى القدرة والكرم. اللهم إنى أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك

الأعظم، وجدك الأعلى، وكلماتك التامات التى تمت صدقًا وعدلاً، أن تصلى على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين، وأن تجمع لى خير الدنيا والآخرة.

اللهم أنت الحى القيوم أنت هديتنى وأنت تطعمنى وتسقينى.. وأنت تميتنى وتحيينى فارحمنى يا أرحم الراحمين».

كما كانت تدعو بهذا الدعاء:

«يا عماد من لا عماد له.. وياذخر من لاذخر له.. ويا سند من لا سند له.. ويا حرز الضعفاء، ويا كنز الفقراء، ويا سميع الرجاء، ويا منجى الغرقى، ويا منقذ الهلكى، ويا محسن يا مجمل، يا منعم يا متفضل، أنت الذى سجد له سواد الليل وضوء النهار وشعاع الشمس وحفيف الشجر ودوى الماء.

يا الله الذى لم يكن قبله قبل، ولا بعده بعد، ولا نهاية له ولا حد، ولا كفء ولاند، وبحرمة اسمك الذى فى الادميين معناه، المرتدى بالكبرياء والنور والعظمة.. محقق الحقائق ومبطل الشرك والبوائق، وبالاسم التى تدوم به الحياة الدائمة الأزلية التى لا موت معها ولا فناء، وبالروح المقدمة، وبالسمع الحاضر، والبصر النافذ وتاج الوقار، وخاتم النبوة، وتوثيق العهد.. يا الله لا شريك لك».

* * *